التفكر بآلاء الله ونعمة الإسلام

د. فلاح نجم عبد الله العاني

أستاذ في كلية الإمام الأعظم - ديوان الوقف السني

الحلقة (١)

إننا نعيش في زمانٍ كثرت فيه الفتن، ومن أخطر هذه الفتن: ظهور طائفة من الناس في الدول الإسلامية ينكرون وجود الله تعالى، ويسندون ما يحدث في هذا الكون إلى الطبيعة، أو إلى الصدفة، ويجهرون بذكر أدلتهم الواهية الباطلة على إنكار وجود الخالق العظيم في وسائل الإعلام، مستغلِّين ضعفَ عقيدة توحيد الله تعالى عند بعض المسلمين.

قال الله تعالى: وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ.

التذكير هنا نوعان:

النوع الأول: تذكير بما لم يُعرف تفصيله، مما عُرف مجمله بالفطر والعقول، فإن الله فَطر العقول على محبَّة الخير وإيثاره، وكراهية الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل أمر ونهي من الشرع فهو من التذكير، أن يذكر ما في المأمور من الخير والحسن، وما في المنهي عنه من المضار.

النوع الثاني: تذكير بما هو معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة، فيُذَكَّرُون بذلك، ويُكرَّر عليهم؛ ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطًا وهمَّةً، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وكذلك تتضمَّن أمرًا إلهيًّا عامًّا بالتذكير، وهو يدخل ضمنًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي قال الله تعالى فيه: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، وقال تعالى: وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وقال تعالى: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ.

الإنسان بحاجة إلى التذكير من أخيه الإنسان بصفة دائمة؛ بل هو واجبٌ وحقٌّ شرعيٌّ له من باب (**الدين النصيحة**)، وفي هذه الأيام تشتدُّ الحاجة إلى التذكير؛ لكثرة المشاغل والمصارف الدنيوية التي أفرزتها الحياة المعاصرة، فكثيرٌ منَّا أصبح مشغولاً صباحًا ومساءً بأمور الدنيا، ونسينا وغفلنا عن كثير من الواجبات الشرعية التي تزيدنا قُرْبًا من الله تعالى.

ولذلك كان لزامًا على الجميع دون استثناء تذكيرُ بعضنا بعضًا وعدم التقاعس أو التخلِّي عن هذا التوجيه المهم؛ لأن فيه صلاح الناس، وبصلاحهم يصلح المجتمع، وتصلُح الأُمَّة، ويحصل الخير، ويعمُّ الأمن والرخاء، ويصدق ذلك قول الله تعالى: **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ**، وقوله تعالى: **وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**.

أن يحرص الجميع على تخصيص مساحة ولو دقائق معدودة يوميًّا للتذكير، فالموظف في عمله بحاجة للتذكير بأهمية الأمانة في العمل وإنجازه بالدقة المطلوبة وفي الوقت المحدد، والأولاد بحاجة للتذكير بالاهتمام بالصلاة والمحافظة عليها، والاهتمام بواجباتهم المدرسية وإنجازها ومراجعتها، والتلميذ في مدرسته والطالب في جامعته بحاجة للتذكير، وكُلٌّ في موقعه بحاجة للتذكير، فتخصيص وقت يسير في حدود خمس إلى عشر دقائق للتذكير بين فترة وأخرى فيه خيرٌ كثيرٌ ونفْعٌ كبير إن شاء الله تعالى.

وتواجه عملية التذكير بعض الصعوبات؛ كإعراض المراد تذكيرهم وعدم مُبالاتهم، أو الاستهزاء والسخرية؛ ولذلك يتطلب من المُذَكِّرْ أن يكون هدفه الأساس من التذكير وجه الله تعالى، ويستشعر عظمة هذا العمل، وحسن الجزاء من الله تعالى، وأن يكون قُدْوته في هذا العمل الجليل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي مقدِّمتهم خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يتذكر ما لاقوه من إعراض واستهزاء وسخرية؛ بل وصل الأمر إلى شتمهم وضربهم وطردهم من ديارهم وحتى قتلهم.

والآن:

في سياق الرد على الملحدين مَرَّ ما يتعلق بالأدلة العلمية العقلية على وجود الرب تبارك وتعالى.

الْعدم لا يخلق شيئًا، العدم الذي لا وجود له لا يستطيع أن يصنع شيئًا؛ لِأَنَّهُ غير موجود، وإذا ما تأملنا فِي المخلوقات التي تولد فِي كل يومٍ؛ من إنسان وحيوان، والتي توجد؛ من نبات وظواهر يجعلها الله عز وجل فِي هذا الكون، وتفكرنا فِي كل ما يحدث فِي الوجود من رياح وأمطار وليل ونهار، ونظرنا إِلَى ما

يجري فِي كل حينٍ من حركات منتظمة للشمس والقمر والنجوم والكواكب، إِذَا تأملنا فِي هذا وغيره من التغيرات المحكَمَةِ التي تجري فِي الوجود فِي كل لحظة؛ فإن العقل يجزم بأن هذا كله لا يمكن أن يكون من صُنْعِ العدم؛ لأن العدم لا وُجُود له، وإنما هذا كله من صنع الخَالِق الموجود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال جَلَّ وَعَلاَ: **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ**، فالتفكر فِي المصنوع يدل على وُجُود الصانع؛ بل وعلى صفاته، فكل شيء يوجد فِي المصنوع يدل على قدرةٍ أو على صفةٍ عَنْد الصانع، فلا يمكن أن يوجَد شيء فِي المصنوع إِذَا كَانَ الصانع لا يملك قدرة ولا صفةً مَكَّنَتْهُ من فعل ذَلِكَ الشيء فِي المصنوع؛ فضلاً عَنْ أن يكون هذا المصنوع وُجِدَ بغير صانع.

والرد على الملحدين من كتاب الله العزيز العظيم:

سوف نذكر بعض الحقائق العلمية الموجودة في هذا الكون لنرد بها على الذين ينكرون وجود الله تعالى، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا: الماء واحد والأرض واحدة والنبات مختلف:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: انظروا أيها العقلاء: ينزل المطر من السماء على الأرض، فيخرج منها أقوات وثمرات، مختلفة الألوان والطعوم والروائح، يعيش الإنسان عليها، وتخرج من الأرض أيضًا أعشابٌ وحشائش متنوعة تعيش عليها سائر الحيوانات.

نسألكم أيها العقلاء: هل الطبيعة هي التي جعلت الماء واحداً والأرض واحدة والنباتات مختلفة الألوان والطعوم والروائح، أم أن هذه الأشياء أوجدت نفسها بنفسها؟!

نريد منكم جواباً وكلمة حقٍّ، إن كنتم منصفين.

إن اختلاف النباتات في اللون والطعم والرائحة دليلٌ واضحٌ على وجود إله عظيمٍ، خالقٍ لهذا الكون، مستحقٍّ للعبادة وحده.

وصدق الخالقُ العظيم حيث يقول في كتابه العزيز: **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.**

وقال سبحانه: وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

ثانيا: مراحل نمو الجنين في بطن أمه:

أثبَت علماء الطب الحديث أن تكوين الجنين في بطن أمه يمر بعدة مراحل متتابعة، بانتظام دقيق: فيكون أولاً نطفة، ثم تتحول إلى علقة، ثم تتحول إلى مضغة، تامة الخلقة أو غير تامة الخلقة، ثم تتكون بعد ذلك العظام، ثم تغطى باللحم حتى بدايات الحركة والحياة قبل الخروج إلى العالم.

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى:

هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت الجنين في بطن أمه يمر بهذه المراحل المختلفة قبل خروجه إلى الدنيا؟!

إن ثبوت هذه الحقيقة العلمية الباهرة دليلٌ واضحٌ لعقلاء العلماء الذين يعترفون بوجود خالق عظيم لهذا الكون.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ.

ثالثا: أغشية الجنين:

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى: أثبت علماء الطب الحديث أن الجنين في بطن أمة محاطٌ بثلاثة أغشية، وهذه الأغشية تظهر بالعين المجردة كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشية هي التي تسمى: المنباري، والخوربون، والفائضي.

وبعد ثبوت هذه الحقيقة العلمية، نسأل الملحدين: هل الطبيعة أو الصدفة هي التي أحاطت الجنين بهذه الأغشية الثلاث؟!

إن العقلاء من العلماء يقولون: لا، إن وجود هذه الأغشية الثلاث حول الجنين دليلٌ واضحٌ على وجود الخالق العظيم، الذي خلَق كل شيء بحكمة بالغة.

قال سبحانه: **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ**. كذَلِكَ لو أننا تفكرنا فِي المصنوع؛ فإنه يدلنا على بعض صفات صانعه، فمن هنا نعرف أن التفكر فِي المخلوقات يدل على بعض صفات الخَالِق؛ قَالَ ربنا جَلَّ وَعَلاَ: **إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**، ولو أننا انتقلنا من الإنسان إِلَى الحيوان؛ فكل الحيوانات والطيور والحشرات بَدَأَت بخَلْقٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبخلقٍ من ذكر وأنثى، وهذه هي بداية الخلق جميعًا، ولا يستطيع أحد أن يَدَّعِيَ أَنَّهُ خَلَقَ من عدم ذكرًا وأنثى من أي نوع من الانسان أو النبات أو الحيوان.

الله عز وجل لفت أنظارنا وعقولنا إِلَى هذا الأمر الكبير فِي القرآن الكريم، فقال: **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**؛ بل إنَّهُم يَقُولون: إن الزوجية موجودة على جميع المستويات، حتى فِي الذرة، ففي الذرة كهيرب سالب وشحنة موجَبة تكون فِي النواة، فإذا زاد عدد الكهيربات السالبة؛ زاد ما يقابلها أَيْضًا من هذه الشحنات الموجبة فِي أنوية الذرات، فقالوا: الكون كله مبني على الزوجية، ثم قَالَ بعض أهل الْعِلْم: إن ذَلِكَ يدلنا على أن الله رب العالمين وحده هو الواحد الأحد، وأما جميع الخلق؛ فجعله الله زوجين؛ **وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ**، حتى على مستوى الجمادات بهذا النحو الَّذِي مر ذكره.

لم يأت أحد من المخترعين ليقول لنا: إنَّهُ أوجد شيئا من عدم، أو أَنَّهُ خلق ذكرًا وأنثى من أي شيء من الموجودات فِي هذا الكون، وما أكثرَ الموجوداتِ فِي كون الله جَلَّ وَعَلاَ.

لم يحدث هذا، ولن يحدث أبدًا.

وهنا تأتي حقيقة قرآنية عظيمة تتحدى الخلق أجمعين؛ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**.

هذا هو التحدي الإلهي الَّذِي سيبقى قائمًا إِلَى يوم القيامة.

لن يستطيع علماء الدنيا مهما بلغوا – ولو اجتمعوا – على أن يخلقوا ذبابة.

وضرب الله تبارك وتعالى المثل بالذبابة وهي مخلوق محتقَر؛ ليدل على عجز هَؤُلاَءِ الناس؛ بل إن الأمر ترقى فِي التحدي إِلَى ما هو أعلى من ذَلِكَ، فإن الله عز وجل أسقط عَنْهُمْ الأمر بالتحدي هاهنا فِي مسألة الخلق؛ فإن الطِّيبَ الَّذِي كَانوا يضعونه على آلهتهم كَانَ الذباب يحط عليه؛ لِيَمُصَّهُ بِخَرَاطِيمه، فتحداهم الله رب العالمين أن يستنقذوا هذا الطيب من الذباب الَّذِي استلبه منهم؛ فهذا التحدي الإلهي الَّذِي سيبقى قائمًا إِلَى يوم القيامة لن يستطيع علماء الدنيا – ولو اجتمعوا – أن يواجهوه، ولا أن يقبلوه؛ لأَنَّهُم – ولو اجتمعوا – لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابة.

لقد وصل الإنسان إِلَى القمر – كما قيل –، وقد يصل إِلَى الْمرِّيخ كما يحاولون، وقد يتجاوز ذَلِكَ، كل هذا بابُ الاحتمالات فِيه مفتوح؛ ولَكِنَّ الإنسان مع هذا التقدم التقني الْعَظِيم سيظل عاجزًا عَنْ خلق ذبابة!!

فيا أيها الَّذِينَ صنعتم ما صنعتم، واخترعتم ما اخترعتم، وجاوزتم ما جاوزتم فِي أجواء الفضاء، وغُصْتُم فِي الماء، إِلَى غير ذَلِكَ مما وصلتم إِلَيْهِ؛ لن تستطيعوا أن تخلقوا ذبابة ولو اجتمعتم على خلقها، فالله رب العالمين لن يعطي أحدا القدرة على الخلق؛ لأن الخلق لله رب العالمين وحده، ولا أحد يمكن أن يخلق شيئًا من العدم مهما صَغُرَ شأنه، حتى ولو كَانَت ذبابة، وهذا من إعجاز الله؛ لأَنَّهُ وحده الَّذِي خلق كل شيء، والْعِلْمُ كاشفٌ لقدرات الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الأَرْض؛ ولَكِنه ليس موجداً لشيء، ولِذَلِكَ يَقُول القرآن الكريم: **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**، فمهما حاول الناس فإنما يحاولون فِي هذه الذبابة، وهي أن يكتشفوا أسرار الله عز وجل فِي كونه، أما أن يخلقوا – ولو ذبابة –؛ فهم عَنْ ذَلِكَ فِي أَقْمَإٍ وأَحَطٍّ وأحقر درجات العجز؛ لأن هذا لا يكون بحال أبداً.

فيَثْبُتُ لنا بالدليل العقلي وبالقرآن الكريم بالدليل النقلي – أن الله وحده هو خالق كل شيء، وأنه تعالى على كل شيء قدير.

وتلحظ شيئًا آخر، وهو ما يتعلق بقدرة الله رب العالمين الطليقة، فمظاهر طلاقة هذه القدرة هي المعجزات التي تخرق النواميس؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعل السنن الإلهية قائمة فِي كونه؛ ولَكِنها مطردة إلا إِذَا خرقها الله رب العالمين بآية – أي بمعجزة – يؤيد بها رسله وأنبياءه، فأنت تعلم أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى جعل قانون الماء على الاستطراق، فهذا الاستطراق من قانون الماء، وهذا هو القانون الَّذِي هو من سنن الله تَبَارَكَ

وَتَعَالَى فِي هذا الخلق فِي الأَرْض؛ ولَكنه يُخْرَق، فيضرب موسى البحر بعصاه، فيجد طرقًا بعدد الأسباط، ثم يكون الماءُ قائمًا والطريقُ يابسًا، وتجَدُ هذا كلَّه حتى يَعْبُرَ موسى وقومُه، فإذا ما أتى فرعون وملأه، فدخلوا حيث دخل موسى؛ عاد الماء إِلَى قانونه، فأُطْبِقَ عليهم فأهلكهم.

القمر جعله الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى – وهو آية سماوية – على النحو المعروف؛ ولَكِنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشير إِلَيْهِ، فينفلق إِلَى شقين، ويكون الجبل بينهما، فإذا كل شق على جانب من جانبي جبلِ أبي قُبَيْس، يشاهدون ذَلِكَ ويرصدونه فِي الهند؛ لأَنَّهُ وجد فِي بعض آثارهم ما يرجع إِلَى أَنَّهُم رصدوا فِي ليلة كذا من سنة كذا بتقويمهم ظاهرةً غريبةً جدًا وقعت للقمر فِي السماء، وهو انشقاقه، فإذا قوبل ذَلِكَ بالتاريخ الَّذِي كَانَ فيه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ داعيًا للناس إِلَى دين الحَقّ؛ وُجِدَ ذَلِكَ متطابقًا؛ ولَكِنَّ ناموسَ هذا المخلوق والجِرْمِ السماوي ليس على هذا النحو، وطلاقة القدرة هاهنا تَدُلّك على أن وراءها إلهًا قادرًا مريدًا حكيمًا فاعلاً، لأن اضطراد السنن يُنْسِي أحيانًا مَنْ سَنَّها؛ كاطِّرادِ النِّعَمِ يُنْسِي أحيانًا مَنْ أَنْعَمَ بها، فإن الإنسان إِذَا ما عان العافية؛ فإنه لا يتذكر المرض، والنعمة التي ينعم الله عز وجل بها على الإنسان من إلف عادته لها لا يحس بها، فالمرء إِذَا كَانَ صحيح البصر؛ فإنه لا يحس أن له عينين، ولَكِنه إِذَا ما أصيب ورَابَهُ من بصره شيء؛ فحينئذ يعرف أن الله قد خلق له عينين.

القلب الإنساني يدق منذ المرحلة الرَّحِمية الجَنِينية، والكائن الإنساني ما زال فِي مرحلة التخلق فِي رحم أمه جنينًا بعد، فيبدأ القلب فِي مراحل التكون والتخلق فِي الرحم؛ يبدأ فِي الدق، والأطباء عَنْد فحص المرأة يسمعون ذَلِكَ، وقد يُكَبِّرُونه حتى يسمعه من كَانَ حاضرًا، فيَسْمع دقات قلب الجنين فِي رحم أمه، ثم إِذَا ما دفعته إِلَى هذه الحياة فبقي فِيها قرنًا من الزمان مثلاً؛ فقلبه يدق لا يتوقف، لو توقف مات، ولَكِنه ربما يحيا قرنًا من الزمان ولا يحس أن له قلبًا، لا أعني أن له قلبًا من الناحية الروحية ولا من ناحية الخشوع، ولَكِن من الناحية العضوية، فإذا ما آلمه منه شيء أو اعتل هذا العضو فِي جسده؛ حينئذ يتذكر أن له قلبًا، فكذَلِكَ ما يحدث فِي كون الله من هذه السنن المطردة.

الشمس تشرق، ثم تغيب من المشرق إِلَى المغرب، وكذَلِكَ ما يكون من الليل والنهار، وكذَلِكَ ما يكون من البحار والأنهار، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأمور، إِلْفُ الإنسان لها يُنْسِيه خالقها، يُنْسِيه مَنْ سَبَّبها، فإلف الإنسان للسبب ينسيه المسبِّبَ، وهذا من الخلل الكبير من الناحية العقلية ومن الناحية الشرعية، فعلى الإنسان دائمًا أن يتأمل فِي هذا.

جعل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى طلاقة القدرة نافذة فِي أمثال هذه الظواهر المألوفة فِي كونه، وأجرى على أيدي أنبيائه ورسله آيات أو معجزات لتدل على صدقهم.

جعل الله رب العالمين من هذه السنن: أَنَّهُ إِذَا التقى الذكرُ والأنثى؛ كَانَ بينهما ولد، ولَكِنَّ هذا ليس بمطرد، فالله عز وجل يَلْفِتُنا إِلَى هذا بقوله: **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**، فيلتقي الذكر والأنثى ولا يكون بينهما ولد؛ **وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**، وهذا من بعض الحكمة التي يستجليها كثير من أهل الْعِلْم فِيما تجده فِي الخلق من بعض الأمور التي تختل فِيها أعضاؤهم الظاهرة، فإنك ترى بعض الناس على صفة معينة من حيث الخلق، ويعجب الإنسان من هذا، يقول: أهذا الكائن؛ وبعض الناس يتفلسف في هذا فيقول: ما ذنبه إذ وُلِد بغير يدين، أو ولد أكمه لا عين له، إِلَى غير ذَلِكَ من هذه الأشياء!!

أنت عندما تنظر إِلَى هذا؛ تعلم أن ما تراه من السنة المطردة فِي الخلق على ما خلقهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عليه ليست فاعلةً بذاتها، وليست بمحض عملية طبيعية تكون من التقاء الذكر بالأنثى مع ما يكون فِي الرحم، ثم يدفع الرحم ما فِيه، فيأتي هذا الكائن الإنساني على هذا النحو، وإنما يتوقف هذا الاطراد أحيانًا، فتجد أمثال هذه الأمور، فإذا رأى الإنسان ذَلِكَ قَالَ: "الحمد لله الَّذِي عافاني مما ابتلى به غيري، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً"؛ لِيُخْرِجَ الإنسانَ قَسْرًا من إِلْف العادة فِيما يتعلق بأعضائه وصحته إِلَى معرفة أن هذا من محض النعمة والفضل عليه؛ لأن الإنسان إِذَا رأى مبتلى؛ فإنه يَقُول: "صَحَّحَ الله لي نظيرَ ما ابْتُلِيَ هذا به"، فيحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى على ما أنعم عليه به.

وأما إِذَا ما كَانَ الأمر مطرداً فِي الجميع؛ فإن ذَلِكَ يكون أدعى لنسيان نعمة الله على العبد؛ لإلف العادة فِي هذه الأمور المنعَم بها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل فِي قوانين الأَسْبَاب أَنَّهُ متى تزوج الذكر والأنثى يأتي الولد، ولَكِن أبقى لنفسه سبحانه طلاقة القدرة، فجعل هُنَاكَ ذكرًا وأنثى يتزوجان أعوامًا طويلة ولا يُرْزَقَانِ ولداً، فمع قوانين الأَسْبَاب كَانَت هُنَاكَ أَيْضًا الإرادةُ الحازمة، وطلاقةُ القدرة لم يجعلها الله رب العالمين عامة، بل جعلها فِي

أمثلة قليلة؛ لِتَلْفِتَنَا إِلَى طلاقة قدرته؛ **وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**، فحتى لا نحسَبَ أننا نعيش بالأَسْبَاب وحدها، ولا تجد هذا فِي الإنسان وحده؛ بل إِنَّهُ لَيَمْتَدُّ لِيَشْمَلَ جميعَ الخلق فِي جميع أوجه الخلق فِي هذا الوجود.

الأصل فِي الإيجاد من ذكر وأنثى؛ ولَكِنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطلاقة القدرة خلق إنسانًا بدون ذكر أو أنثى، وهو آدم عليه السلام، وخلق خلقًا بدون أنثى، خلق من ذكر بدون أنثى، فخلق من آدم زوجه، فجعلها مخلوقة من ذكر بلا أنثى، خلقها من ضِلَعِهِ كما قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، وخلق الله رب العالمين إنسانًا من أنثى بلا ذكر، وهو عيسى بن مريم عليه السلام، فهذا كله يدلنا – مع أَنَّهُ قد حَدَثَ مرة بعد مرة – على أن الأمر ليس مطردًا، هذا من خلق الله، فإذا شاء أن يُخَالِفَ هذا القانونُ المطرد؛ خولف.

إن الله عز وجل بدأ خلق آدم من طين، من تراب، من صلصال، من حمإٍ مسنون، ونفخ فِيه من روحه، فخلق آدم من غير وساطةِ ذكر ولا أنثى، ثم خلق من آدم زوجه، فخلق أنثى من ذكر على هذا النحو بلا أنثى، فخلق حواء من ضِلَعِ آدم، وخلق الله رب العالمين عيسى من مريم بغير واسطةِ ذكرٍ، فخلق أَيْضًا من أنثى بلا ذكر، كما خلق من ذكر بلا أنثى، كما خَلَقَ مِنْ لا ذكرَ ولا أنثى، ثم يأتي عامة الخلق الإنساني من ذكر وأنثى.

فهذا يَلْفِتُنا إِلَى أن الله تعالى على كل شيء قدير، وأنه ليس لقدرته من حَدٍّ تقف عَنْده ولا قيدٍ يقيدها، فهي قدرة طليقة بلا قيد ولا حد.

الله عز وجل خالق الأَسْبَاب، وقدرته تبارك وتعالى فوق الأَسْبَاب، فالله يفعل ما يشاء.

لو نظرنا إِلَى المطر – مثلاً –؛ لوجدناه سبحانه قد جعل فِي الكون مناطق ممطِرة، ومناطق لا ينزل فِيها المطر، ثم كشف الْعلماء من علم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ما جعلهم يضعون خريطة للأسباب تحدد المناطق الممطرة والمناطق التي لا مطر فِيها؛ ولَكِنْ قد يحدث العكس فِي بعض الأحيان؛ ليوجهنا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى طلاقة القدرة، وإِلَى أن الماء الَّذِي ينزل من السماء ليس خاضعًا للأسباب وحدها؛ ولَكِنَّ الَّذِي يحكمه هو إرادة الله رب العالمين على حسب علمه وحكمته؛ حتى لا نعتقد أننا أخذنا الدنيا وملَكناها بالأَسْبَاب، ولَكِن نعرف أن هُنَاكَ طلاقة قدرة الله سبحانه الَّذِي يسبب ما يشاء، ويغير ما يشاء، ويبدل ما يريد، وهو على كل شيء قدير.

فالْعلماء الآن فِيما يعرف بالأرصاد وغيرها يَقُولون: نحن نتوقع – إن شاء الله – على حسب الصور الأقمار الصناعية، وعلى حسب الخرائط الفلكية الجغرافية، إِلَى غير ذَلِكَ من وسائلهم؛ أن يوم كذا سيقع فِيه كذا، ثم لا يقع، وأحيانًا يقع، وهذا ليس من باب التنبؤ فِي شيء، ولا من باب التدخل فِي خلق الله رب العالمين فِي شيء، ليس هذا من التنجيم؛ لأَنَّهُ مبني على قواعد الحساب التي تَوَصَّلَ إِلَيْهِا هَؤُلاَءِ بحسب علمهم؛ ولَكِن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يفعل ما يريد، وأنت تعلم أَنَّهُ قد قيل: إن الأمس مثلاً كَانَت درجة الْحَرَارَة ستصل إِلَى درجتين مئويتين، يعني فوق درجة الصفر المئوي بدرجتين، ولم يقع من ذَلِكَ شيء، بل كَانَ الجو محتمَلاً ولطيفًا أو دافئًا أو ما شئت؛ لأن الله فعال لما يريد، الناس يستعملون علمهم؛ ولَكِنَّ).